كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وزارة الأوقاف

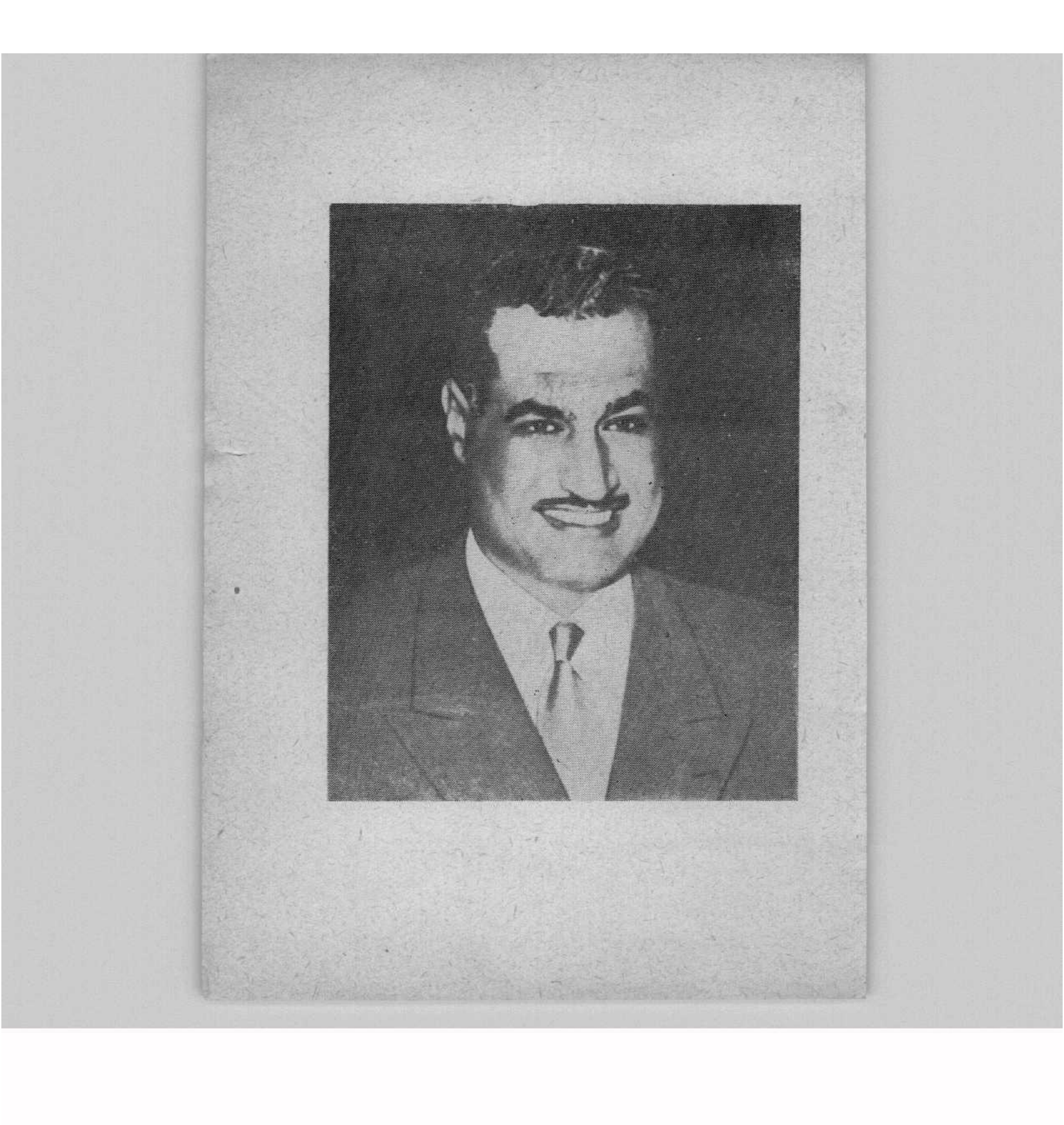
إلى والدتي العزيزة
في عيدها العظيم
صبحي الباب
٢١/٣/١٩٦٦

السفارات الثقافية في الدبلوماسية الإسلامية

حسن فتحي الباب

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

« ١٥ »
السنة الثانية
١٥ من شوال ١٣٨١ هـ
٢١ من مارس ١٩٦٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتَعَارَفُوا .

صدق الله العظيم

تمهيـــد

تعنى كلمة الدبلوماسية فى أصلها الاغريقى القديم الوثيقة أو المكاتبة التى تطوى كما يطوى الخطاب وتبعث بها أصـحاب السلطة بعضهم الى بعض فى علاقاتهم الرسمية ، وتجعل لحاملهـــا امتيازا معينا ٠

وقد انتقلت هذه الكلمة من اليونانية الى اللاتينية ومنها الى اللغات الأوربية الحية كالانجليزية والفرنسية ثم الى اللغة العربية واستخدمت للدلالة على أكثر من معنى ٠ فقد اســـتعملها الرومان بمعنى الشهادة الرسمية أو الوثيقة التى تتضمن صفة المبعوث أو السفير والمهمة الموفد بها فكانت بمثابة جواز سفر ، وبمعنى ما ينبغى على المبعوث أن يتحلى به من الأدب الجم واصـــطناع المودة وتجنب أسباب النقد ٠

وتطور استعمال كلمة دبلوماســـية حتى أصبحت فى القرن السابع عشر تعنى دراسة الوثائق القديمة ، ولم تســـــتخدم فى معناها المتعارف عليه الآن الا منذ نهاية القرن الثامن عشر ٠ وتعنى الدبلوماسية فى العصر الحديث ممارسة الدولة لسياستها الخارجية عن طريق المفاوضات وغيرها من الوسائل السلمية . وهناك معان أخرى متنوعة تستعمل فيها الكلمة جوازا ، الا أن المدلول الذى أشرنا اليه هو المعنى المألوف والأكثر شيوعا ٠

وهناك تعريفات مختلفة للدبلوماسية وردت فى الموسوعات والمعاجم وفى مؤلفات فقهاء القانون الدولى ورجال الدبلوماسية وعلمائها نخلص منها الى أن **الدبلوماسية هى فن ادارة العلاقات الخارجية للدولة أو بتعبير آخر هى أسلوب مباشرة العلاقات بين الدول ٠**

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ذلك التعريف الذى ورد على لسان معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية وأدهى الحكام العرب فقد عبر عن فن سياسة الحكم وادارة شئون الدولة فى علاقاتها العامة بقوله :

« لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا أرخوها شددتها ، وان شدوها أرخيتها » ٠

وهو تعريف بالغ الدلالة على ما اشتهر به معاوية من مرونة

الدبلوماسية الاسلامية

ان الدبلوماسية الاسلامية ـ كما تشهد الوثائق والدراسات ـ ذات تاريخ طويل حافل ، وهى تضرب بجذورها الى عهد الدولة الاسلامية الأولى ٠ وقد ظلت منهجا ذا قواعد ونظم محددة تترسمها الدولة فى تسيير علاقاتها بغيرها من الدول عبر العصور المختلفة ٠

فان الاسلام دين منه الدولة ٠ وهو الشريعة السماوية التى أنزلت للبشر كافة ، ومحمد عليه السلام هو خاتم النبيين الذى أرسله الله مبشرا ونذيرا للعالمين ٠ قال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » ٠ « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ٠ « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ٠ « يأيها الناس انا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ٠ ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠

وهذا التعارف الذى تدعو اليه الآية الكريمة انما يتم بالاتصال بين الناس أو هو بمعنى آخر يتم بالطرق الدبلوماسية متى كان هذا الاتصال بين دولة ودولة ٠

والاسلام دين سلام ، الحرب فيه مشروطة بقصد حماية الدعوة والدفاع عن النفس ٠ فهو وان حض على الجهاد فقد دعا كذلك الى نشرالعقيدة بالطرق الودية أى بالأسلوب الدبلوماسى ٠ قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ٠ وجادلهم بالتى هى أحسن » ٠ « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم » ٠ « وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » ٠ « يأيها الذين آمنــوا ادخلوا فى السلم كافة » ٠ « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ٠ « فبما رحمة من الله لنت لهم ٠ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ٠

فالجهاد أو الحرب الدائمة لم تكن بمثابة العلاقة الطبيعية أو الوحيدة القائمة بين المسلمين وغيرهم ٠ ففى غير أوقات الجهادكانت تقوم علاقات ودية بالوسائل الدبلوماسية بين الدولة الاسلامية وبين الأمم والشعوب المحيطة بها ٠ « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم** » ٠ « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ٠ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** » ٠

والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتخذ الحكمة اسلوبا لنشر الدعوة وسبيلا الى تأليف القلوب ويجعل منها دستورا لكل ما يتعلق

بمعاملاته وعلاقاته مع القبائل فى الجزيرة العربية ومع الأمم والشعوب المجاورة ، ويتجلى ذلك فيما سطر من كتب واوفد من بعوث الى القبائل العربية والى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها وفيما نظمه من مؤتمرات واجتماعات وما عقده من معاهدات للمحالفة أو الهدنة وفداء الأسرى أو تبادل المعونة وتحقيق المصالح المشتركة فى غير ذلك من الأغراض ·

ويترسم (الخلفاء وأئمة المسلمين فى عصور الدولة الاسلامية) خطى الرسول عليه السلام فى تعاليمه النبيلة التى تدعو المسلمين الى انتهاج الأساليب الودية فى علاقاتهم مع غيرهم ، فتتولد دعائم الدبلوماسية الاسلامية وتتطور فى أغراضها ووسائلها وفقا للظروف الداخلية والخارجية فى كل عصر ·

السفارات بين الدول وأغراضها

تستعمل كلمة سفارة للدلالة على البعثة التى ترسلها دولة أخرى تتبادل معها التمثيل الدبلوماسى لتحقيق غرض من الأغراض المشتركة بينهما · والسفير هو المبعوث الذى توفده دولة ما فى مهمة من المهام الدبلوماسية فيسعى لانجازها عن طريق المباحثات والمفاوضات وغيرها من الأساليب الدبلوماسية مع ممثلى الدولة المرسل لديها · وقد تكون مهمته قاصرة على نقل رسالة شخصية أو خطاب شفهى أو مذكرة الى رئيس تلك الدولة أو أحد أصحاب السلطة فيها · ويتوقف نجاح السفير فى مهمته على نوع العلاقات القائمة بين الطرفين وما يتصفا به من كياسة ورأى ورجاحة عقل ومن صبر واناة وروية فى معالجة الأمور وما يقتضيه ذلك من لين وحزم وأخذ وعطاء ·

ويخلع القانون الدبلوماسى على السفراء والمبعوثين حصانات واعفاءات معينة تعرف بالحقوق والامتيازات الدبلوماسية التى نشأت بتواتر العرف الدولى .

وللسفارات اغراض شتى تختلف باختلاف مقاصد الدبلوماسية وأهدافها . فقد يكون تبادل السفارات وسيلة لتوثيق الصلات التجارية أو لتبادل الأسرى وتبادل العطايا وفض المنازعات وعقد المعاهدات وغير ذلك من الأغراض السياسية والعسكرية . كما قد يكون تبادل السفارات بقصد توطيد الروابط العلمية والثقافية بين الدول وما يحققه ذلك من اقرار علاقات المودة والسلام بينها .

السفارات الثقافية فى الاسلام

دعا الاسلام الى الجهاد فى سبيل الله ، كما حث على نشر الدعوة بالطرق الودية السلمية وهى الوسائل الدبلوماسية المتعارف عليها. ومن ثم استخدمت الدبلوماسية الاسلامية لتحقيق أغراض مختلفة يتصل كثير منها بالهدف الرئيسى وهو نشر العقيدة ومايتفرع عنه ومن هذه الأغراض اعلان الحرب وهو يترتب على رفض الدعوة الى الاسلام أو الامتناع عن دفع الجزية ، وكذلك الفداءوتبادل الاسرى واجراء التحقيق فى بعض الأمور مثل الشكوى من سوء معاملة أسرى المسلمين ، واستطلاع أحوال العدو وهو ما يعرف بأعمال الاستخبارات . وقد وجدت أغراض أخرى فيما بعد حين دب الانقسام فى الدولة الاسلامية ، ومن هذه الأغراض الاصلاح بين الممالك الاسلامية والمساعدة العسكرية بين المسلمين بعضهم وبعض والاعتراف الدولى ويقصد به طلب سلاطين الممالك الاسلامية اعتراف الخليفة بهم . ومن أهم الأغراض التى استحدثت فى الدبلوماسية الاسلامية **السفارات الثقافية** .

ولئن كان دعم الروابط الثقافية بين الدولة الاسلامية وغيرها غرضا مستحدثا فى الاسلام للأسباب الداخليـــة والخارجية التى سنفصل فيها القول فى موضعه من هذا البحث ، الا أننا نجـــد له أصولا ثابتة فى تاريخ الدعوة المحمدية منذ بعثة الرسول ، وتشكل هذه الأصول البذرة الأولى لشجرة السفارات الثقافية التى بـــدأ نموها فى عهد الأمويين فى دمشق ثم ازدهرت فى عهد العباسيين فى بغداد ودولة الأمويين فى الأندلس • بل اننا نجد هذه الأصول فى صميم المبادىء الاسلامية التى جاء بها النبى عليه الصلاة والسلام • فالسفارات الثقافية انما هى نبت دولة تتخذ من العلم دعامة للحياة ومن الثقافة مقوما أساسيا للمجتمع ومن الدبلوماسية وسيلة لاقرار السلام العالمى •

الاسلام ثورة دينية علمية

ان الاسلام فى حقيقته عقيدة تحررية كبرى جاءت لتطلـــق الفرد والمجتمع من اسار الشرك بالله والاضرار بالخلق ، ولتبدل ظلومات الناس وجهالاتهم نورا • وهو رسالة العلم والحضـــارة والتقدم فى سبيل رفع الظلم واقامة العدل وارساء مبادىء الحق والمساواة • ولا سبيل الى ذلك الا بنشر الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة لتقويض الضلالات القديمة وخلق واقع جديد للمجتمع يسير فى هداه حتى يبلغ غايته السامية فى توحيد أفراده وضمان الخير والرفاهية لهم •

وان حركة التاريخ وتطوره الدائم وما سجلت صـــفحاته من وقائع وأحداث تشهد جميعا أن الدين الجديد الذى جاء به محمـد كان ثورة اجتماعية شاملة بأجلى معانيها • ومن ثم وعت رســالة الاسلام الدور الضخم الذى يؤديه العلم فى بناء الفرد وهو وحدة الأسرة التى تشكل خلية المجتمع ، وأدركت ما يفتحه العلم من آفاق

فسيحة نحو مستقبل كريم للانسان وما يفجره من طاقات خلاقة في الأفراد والجماعات ، ففتحت المغالق والسدود التى كانت تقف حائلا في سبيل العلم ، ومهدت له الطريق ليتسلل الى كل عقل كي يتهيأ لاستقبال الرسالة الاسلامية والايمان بها ، وليطهر كل نفس من أدران الجاهلية • ويكفى مصداقا لذلك أن نذكر ما عرضـــه الرسول على أسرى المشركين فى غزوة بدر من اطلاق سراح من يفتدى منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ، ففى الحق أنها أشبه بفدية النفس بالنفس كما تقضى قواعد الفداء التى شرعها الاسلام• فالجهل عدو النفس البشرية وملقيها فى ركام العدم • ولكى تبنى دولة عليك أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة وتضىء بصيرتها بنور المعرفة وتبعثها من الموت الى الحياة •

لقد كانت دعوة محمد فى سبيل الدين ثورة من أجل العلـــم والمعرفة بوحى من آيات الله البينات • فلا غرو أن يمجد الاسلام العلم والعلماء ، ويحث على التماس الحكمة فى مصـــادرها بشتى الوسائل ، ويزن قيمة المرء بعلمه ورجاحة فكره فيجعل العلماء فى المرتبة الأولى بين أقوامهم • قال تعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » • « **وقل رب زدني علما** » • « **وما يعقلها الا العالمون** » • « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » • « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة، ليتفقهوا فىالدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » • « **اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلـــق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علـم بالقلـم •علـم الانسان ما لم يعلم** »

طلب العلم فريضة فى الاسلام

وطلب العلم بمثابة الفريضة فى تعاليم الرسول التى حملها من بعده أئمة المسلمين • ففى الحديث الشريف « **طلب العلم فريضة**

على كل مسلم ومسلمة » . « اطلبوا العلم ولو بالصين » . « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » . « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وانما العلم بالتعلم » .

وفى عصر الخلفاء الراشدين ظل نشر العلم سبيلا الى نشر الدعوة فى آفاق الأرض وسببا لتمكين الدولة الاسلامية الناشئة . وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « **تفقهوا قبل أن تسودوا** » . وكان الخلفاء وسائر الصحابة هم علماء المسلمين الذين تلتمس لديهم الحكمة وتبتغى المعرفة .

وقد ازدهر الاسلام فى العصور التى ساد فيها العلم والعلماء ، وأصابه الوهن حينما أدخلت فيه البدع والخرافات ، ذلك لأنه دين علم ولا يقوم الايمان الحق الا على أساس العلم المتين . فالدين والعلم ــ كما يقول الفيلسوف هكسلى ــ توأمان متلاصقان فصلهما يؤدى الى موتهما ، فان العلم ينمو متى كان دينيا ، والدين يثبت متى كان علميا » . ويقول هربرت سبنسر بحق : « ان العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو للدين الحق الذى كثيرا ما تحاول هذه الأوهام ستره عن الأبصار » . ويصدق الفيلسوف بيكون فى قوله : « ان القليل من العلم يبعد عن الله والكثير يقرب منه » .

ولع المسلمين الأوائل بالبحث العلمى

ويروى المؤلفون القدامى وقائع كثيرة تدل على ولع المسلمين الأوائل بالسعى الى مناهل العلم مهما بعدت المسافة وشقت الطرق فى عالم لم تكن تربطه وسائل المواصلات أو تتح له سبل المعرفة التى نشهدها فى عالم اليوم . والعربى بفطرته وبحكم نشأته الصحراوية

شغوف بالأسفار البعيدة وارتياد الآفاق المجهولة. وقد وجه الاسلام تلك الطاقة الى الحث على انتجاع موارد المعرفة فى مظانها بحثا عن كل طريف ومستحدث فى العلوم والآداب والفلسفات والفنون .

وقد تعمقت أصول الدين الحنيف فى نفوس العرب حتى جد روادهم من الفقهاء والعلماء والفلاسفة فى طلب العلم وتحصيله من كل فج عميق . وكان البحث العلمى فى سبيل تفسير القرآن أكبر غاية يتلمسها المسلم فى دنياه ويأمل بها المثوبة فى أخراه . ونستطيع على ضوء هذا الفهم ان نتبين مصداق ذلك فى قول أبى الدرداء : « **لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها على الا رجل ببرك الغماد (موضع بأقصى اليمن كان مثلا فى البعد وصعوبة الوصول اليه) لرحلت اليه** » ومن أجل هذا الهدف النبيل الذى يبتغيه طالب العلم يقول الشعبى : « **لو أن رجلا سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع** ».

السفارات الثقافية الاسلامية والتعايش السلمى

وحين يجعل الاسلام طلب العلم فى مرتبة الفرائض ويعلى من منزلة العلماء ويجعل من بيوت الله مدارس لتلقى أصول المعرفة ويحرص على التماس العلم والثقافة مهما بعد المنهل ، فهو يؤكد بذلك دور الثقافة فى تعميق وعى الفرد والجماعة بشئون الحياة والعقيدة ، وخلق مجتمع تتحقق لأبنائه العزة والرفاهية . وهو يرمى بذلك أيضا الى هدف أكبر هو تحطيم أسوار العزلة والفرقة التى تفصل بين الناس وتجعلهم شيعا وأحزابا ، وذلك عن طريق نشر الثقافة المشتركة وتبادل الفكر بين الناس جميعا . فالمسلم فى سعيه الى المعرفة يرتاد آفاقا جديدة ويتعرف على بلاد بعيدة ، ويختلط بأشخاص وجماعات كانت تفصله عنهم سدود وحواجز شتى . فيتم بذلك لقاء فكرى خالص لوجه الحقيقة صادر عن أكرم

حوافز النفس البشرية وهو التعاون والتآخى لمعرفة خبايا الطبيعة وحقائق المجهول • **ولا ريب أن هذا اللقاء الفكرى يقرب بين الطبائع المتنافرة ويؤلف بين المذاهب المتناقضة ، ويسفر عن نتـائج ايجابية للعمل المشترك فى سبيل صالح البشرية • ومن ثم كان التبادل الثقافى نابعا من مبادىء الاسلام التى تدعو الى انتشار الناس فى الأرض لتبادل المنافع وتحقيق الأغراض المشتركة وقد قال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » . « ومن يهاجر فىسبيل الله يجدفى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسـوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » •**

فالسفارات الثقافية تنبع من صميم الدعوة الاسلامية وجوهـر رسالتها لأنها دعوة الى الايمان بوحدانية الله ووحدة العلم عن طريق المساواة بين البشر وسيادة الحق والعدل والحرية والقـانون • والتبادل الثقافى من أهم الوسائل التى توثق العلاقات بين الدول وترفع بينها الحواجز . وتفض المنازعات وتدعم السلام . ذلك أن تبادل المنافع المادية كالتجارة والمعنوية كالأفكار ، والمشاركة فيهما يقتلعان بذور الشك وعدم الثقة ويمهدان الطريق للتعاون والتضامن فى ظل الأمن الدولى والسلام العالمى بين أعضاء الأسرة الدولية ، سواء تلك التى تتفق فى نظمها الاجتماعية والعقائدية والسياسـية والاقتصادية أو التى تختلف فيها •

السفارات الثقافية فى التاريخ الإسلامى

(البحث الاول)

فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين

عرف العرب الأسلوب الدبلوماسى فى علاقاتهم ومعاملاتهم وكانت لهم نظم وتقاليد دبلوماسية حتى فى جاهليتهم • فقد نشأت منذ القدم علاقات تجارية وثيقة بين القبائل العربية وبين جيرانها من الأمم والشعوب • وقد اقتضت تلك العلاقات أن يتبادل العرب فيما بينهم وبين غيرهم المراسلات والبعثات ، وأن يصبح لهم بتواتر هذه السفارات أسلوب دبلوماسى تقليدى يصرفون به شئونهم ويديرون به مصالحهم التجارية وغيرها • والعرب بطبيعتهم قوم رحل جوابو آفاق ، تشهد بذلك أسفارهم وقوافلهم التجارية وندواتهم فى سوق عكاظ وغيرها من الأسواق ، واجتماعاتهم فى مواسم الحج ، ووفادات شعرائهم وحكمائهم الى ملوك فارس والحيرة وغسان وحمير •

وقد ساعد على قيام العلاقات الدبلوماسية بين العرب والبلاد المجاورة وتوثيق صلاتهم بها موقع جزيرتهم بينها منذ كانت معبرا للقوافل التجارية قبل الاسلام • وقد أتاح لهم ذلك مركزا تجاريا ممتازا وعلاقات ودية حميدة فى العالم المعروف اذ ذاك • وتحفل

كتب التاريخ بأخبار رسلهم الى الملوك وسفاراتهم ومفاوضاتهم ، بل لقد قدمت اليهم بعثات من هذه الممالك والبلاد تخطب ودهم وتطلب مؤازرتهم ·

غير أن دبلوماسية العرب فى جاهليتهم كانت تتسم بالبساطة التى تتناسب مع ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية · ومن ثم قصرت أغراضها عن التبادل الثقافى حيث أنه غرض دبلوماسى أستحدث فيما بعد حين تعقدت العلاقات وتشابكت المصالح بين العــرب وجيرانهم بعد نشأة الدولة الاسلامية وأصبحت الدبلوماسية فنا متطورا يساير الظروف الجديدة ويتطلع الى آفاق أبعد وأرحب . اذ ازدهرت الحضارة وتقدمت العلوم والمعارف وانفتحت منافذ وسبل جديدة للتلاقى بين الناس والتعاون لتحقيق المصالح والغايات .

وعلى ضوء هذا الفهم نتبين أن رسل العرب من الشـــعراء والحكماء الذين وفدوا على ملوك البلاد المجاورة لم يكن قصـــدهم التبادل الثقافى ، وانما قصدوا به غير ذلك من الأغراض الدبلوماسية التى كانت تدورحول انشاء الروابط التجارية أو تيسيرها وتقويتها ، أو الرغبة فى السلم ، والسعى لذلك بارسال الوفـــود للتهنئة أو المصاهرة وعقد الهدنة أو الصلح وما الى ذلك من الأغراض التى ما زالت قائمة حتى اليوم والتى لم يزد عليها الا التطور فى الشكل والمضمون وبما يتفق مع العلاقات الدولية الحديثة ·

فلم تكن سفارات الشعراء والحكماء العرب ســـفارات ثقافية بالمصطلح الدبلوماسى المعروف الذى يعنى اقامة العلاقات الودية عن طريق التبادل الثقافى ، وانما كان اختيار السفراء من هذه الفئة بعينها ثقة فى مقدرتها على تأدية مهمتها · ولا يعنى هذا أن العرب لم تكن لهم حكمة ومعارف فى جاهليتهم بل على العكس من ذلك فان الحضارة العربية ذات أصول تاريخية قديمة · ولكن التبـــادل الثقافى لا يتأتى بمفهومه الحديث الا لشعب أو جماعة تشكل وحدة

سياسية ولها ثقافتها المتميزة بطابعها المنظم والتى يمكن تبادلها مع الجماعات السياسية الأخرى ، الأمر الذى لم يكن يتوافر للقبائل العربية فى جاهليتها • كما أن هذا لا ينفى أن اتصالات العرب بغيرهم قبل الاسلام قد أدت الى تزاوج حضارى بين الجانبين ، الا ان هذا التزاوج كان يتم عرضا وعن غير قصد • اما التبادل الثقافى فله قصد واضح محدد وهو دعم علاقات المودة والسلام بين الدول من هذا الطريق ، والعمل على ازدهار العلم والفكر فى المجتمع •

فلما بعث النبى – صلى الله عليه وسلم – اقتضته طبيعة الرسالة أن يسلك سبيل الدبلوماسية بمفهومها الذى بيناه لنشر دعوته فى الجزيرة العربية ومنها الى ارجاء العالم الذى كان قائما فى ذلك الحين• وهكذا تطورت النظم الدبلوماسية لتفى بهذه الحاجة الجديدة ودخلت فى مرحلة أكثر تقدما فى شكلها ومحتواها ونعنى بها الدبلوماسية الاسلامية فى نشأتها . وتختلف حلقات هذه المرحلة بحسب ظروف الدعوة وأغراضها وتطورها المرتقب فى المستقبل • فقد كانت العلاقات الدبلوماسية التى أقامها الرسول قاصرة فى بداية الأمر على المحادثات الشخصية وارسال الكتب وايفاد البعثات الى القبائل العربية والى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها للتعريف بالاسلام والدعوة اليه • ومن أجل هذا الغرض كانت سفارات الصحابة الى مختلف القبائل ، وكانت المؤتمرات التى عقدت فى الجزيرة العربية لشرح مبادىء الاسلام والاقناع بها فيما بعد .

وهكذا تعددت وسائل الاتصال فى الدبلوماسية الاسلامية من محادثات شخصية ومراسلات الى سفارات ومؤتمرات حسبما كانت تتطلب الظروف • وكان الغرض الأول الذى تستهدفه الدبلوماسية هو الدعوة الى الاسلام ونشر رسالته •

ولما اثمرت الدعوة وتحققت للعرب – لأول مرة – وحدتهم السياسية ، وقامت أول دلة اسلامية فى المدينة برياسة النبى ، أصبح انتهاج الدبلوماسية ضرورة جوهرية لدعم أركان الدولة

الناشئة ، فاتسع نطاقها وتعددت وسائلها وأغراضها وتطورت دعائمها ، فلم تعد علاقات المسلمين بجيرانهم قاصرة على التبادل التجارى بل امتدت الى مختلف النواحى الأخرى لشدة حاجة الدولة الجديدة الى الاتصال بالدول المحايدة لتنفيذ السياسة الخارجية الاسلامية بالطرق الدبلوماسية ·

ومن طبيعة الأحوال ان السفارات الثقافية ــ باعتبارها غرضا من أغراض الدبلوماسية ــ لم يكن لها مجال يعتد به فى هذه المرحلة ، ذلك لأن الجهد الأكبر كان منصبا على نشر الدعوة الى الاسلام وتوسيع نطاقها والجهاد فى سبيلها ، فاستخدمت الدبلوماسية بمختلف وسائلها لتحقيق هذه الغاية النبيلة وعقدت المعاهدات مع ممثلى الأمصار والمدن المفتوحة لتنظيم الهدنة أو السلم وما يقتضيه ذلك من ايقاف القتال وتبادل الأسرى · واستغرقت الدولة الاسلامية معظم حياتها على عهد النبى فى نشر الدعوة وخوض غمار الحروب ، وقد غزا الرسول بنفسه سبعا وعشرين غزوة ــ وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين ما بين بعثة وسرية · فلم يكن ثمة دور يذكر للسفارات الثقافية · وكان تبادل السفارات يكاد يقتصر على عقد الهدنة ودفع الجزية وما الى ذلك من الأغراض السياسية والعسكرية ، ذلك أن من طبيعة حكومة الثورات ان تقضى معظم سنى حكمها فى ارساء كيانها والدفاع عنه ضد القوى المعادية ·

ومع ذلك فاننا نطالع فى صفحات التاريخ الاسلامى على عهد النبوة أنباء سفارات أوفدها الرسول لتثقيف العرب وتعليمهم · من ذلك بعثة القراء التى أرسلها رسول الله الى قبيلتى عقيل والقارة لتفقيههم فى الدين واقرائهم القرآن .

فهل تعد هذه السفارة ــ وقد كان الغرض منها التفقيه فى الدين واقراء القرآن وتعليم شرائع الاسلام ــ سفارة ثقافية على عهد هذا الرسول ؟ لا ريب أن الاجابة على هذا السؤال بالنفى · فهذه

البعثة انما ارسلت لتعليم أصول الدين فالقصد منها نشر مبادىء الدعوة ، وهو غرض خاص من أغراض الدبلوماسيـــــة يختلف عن السفارات الثقافية كمقصد آخر من مقاصدها بمفهـــــومه الذى أوضحناه • هذا فضلا عن أن السفارات الثقافية انما توفدها الدولة الى دولة أخرى تتبادل معها التمثيل الدبلوماسى بقصد توطيـــد العلاقات بينهما من هذا الطريق • ومثل السفارة التى أوردنا ذكرها مثل غيرها من السفارات التى أوفدها او استقبلها النبى ــ عليـــه السلام ــ سواء أكان ذلك داخل الجزيرة العربيـــة أم خارجها ، فالقصد منها هو الاعلام والدعوة الى الدين الحق •

وكان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبى الكريم ، فالدولة الاسلامية منصرفة الى توطيد اركانها ومد سلطانها فى أرجاء الأرض، فهى تخرج من فتح الى فتح ، ولا تزال مقاصد الدبلوماسية لديهـا تتركز فى بث الدعوة الى الاسلام واعلان الحرب دفاعا عن حمـــاه، والتمكين له بعقد المعاهدات ، ولم يحن الوقت بعد للدخـــول فى علاقات ثقافية مع الأمصار والممالك الأخرى •

المبحث الثانى

فى عصر الدولة الأموية

تقدم الفن الدبلوماسى الاسلامى منذ قيــــام دولة الأمويين واتخاذهم دمشق حاضرة للخلافة ، فأصبح التمثيل السياسى بين الدولة الاسلامية ودولة الروم ذا طابع منظم ، اذ كان قرب دمشق من القسطنطينية يشجع تبادل السفارات بينهما ، ولا سيما انبنى امية كانوا على علاقات تجارية مع البيزنطيين منذ الجاهلية . وقــد أرسلت أول سفارة اسلامية الى هرقل امبراطور الروم فى عهــــد الرسول الكريم ، ثم كانت الغزوات والفتوحات الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين لنشر مبادىء الاسلام ومقارعة اعدائه من الـروم وغيرهم .

ولم تختلف السفارات الدبلوماسية كثيرا فى العهد الأمــوى من حيث طبيعتها واغراضها عما كانت عليه فى عهد الخلفــــاء الراشدين ، اذ ظل هدفها الرئيسى هو تأييد الفتوحات الاسلامية فى نشر الاسلام فى الأقطار والمدائن التى لم يكن قد وصـــل اليها بعد ، والجهاد فى سبيل حمايته ، فلم يحدث من هذه الوجهـــة تطور كبير فى الدبلوماسية الاسلامية وانما كان التطور قاصرا على تنظيمها وتقدم وسائلها وتشعب ميادينها . وكان استمرار الحروب بين الدولة الاسلامية ودولة الروم فى ذلك العهد لايسمح بأكثر من

تبادل السفارات لعقد معاهدات الهدنة أو تنظيم فترات السلـــم ودفع الجزية .

ومن ثم لم يدخل الأمويون فى علاقات وطيدة مع الروم ، ولـــم يسعوا بطبيعةالحال الى عقد أواصرالصداقة والتعاون معهم الاحينما كانت تضطرهم الظروف الداخلية الىذلك فكانت العلاقاتالسياسية الودية بين الدولتين قاصرة على الفترات التى شعر فيها الأمـويون بالرغبة فى اقامة هذه العلاقات لاحتياجهم الى الاستقرار أو الى قدر من الهدوء لمواجهة الثورات المعادية لهم . وقد عمد خلفاء بنى أمية الى عقد معاهدات الصلح والسلم مع الدولة البيزنطية فى أواخـــر القرن السابع الميلادى حتى يأمنوا الجبهة الخارجية ويتفرغوا للقضاء على الفتن التى نشبت فى الداخل . أما فى غير هذه الفترة ــ وهى قليلة نسبيا ــ فقد كانت المعارك الحربية مستمرة بين الجانبين .

وازاء هذه الظروف السياسية والعسكرية لم تزدهر السفارات الثقافية فى العصر الأموى حتى فى الفترات التى ساد فيهـــا السلام بين الدولة الاسلامية ودولة الروم ، وقد كانت تلكالفترات ــ فضلا عن قلتها ــ لاتمثل سلاما دائما يسمح بقيام تلك السفارات وانما هى فترات سلام مسلح أو صلح مؤقت .

وثمة عامل آخر حال دون التبادل الدبلوماسى فى الميـــدان الثقافى وهو أن ــ النهضة العلمية لم تعد طور البداية فى تلـــك الحقبة ، اذ كانت الفتنة التى دبت فى صفوف المسـلمين منــذ أواخر عهد عثمان وعهـــد على رضى الله عنهما تستأثر بمعظـــم جهود الدولة فى حصرها والقضاء عليها . **والسفارات الثقافيـــة وليدة عاملين لابد من توافرهما ، الأول : استقرار الدولة ورخـاء المجتمع وما يتمخضان عنه من تقدم فى العلوم والمعارف ، والثانى : قيام العلاقات الودية فى الميدان الدولى وماتؤدى اليه من تفاهم وتعاون فى سبيل قضاء المصالح المشتركة وهى علاقات تتـــوقف**

الى حد كبير على التوازن الدولى . ولا ريب أن السلم هو البيئة الصالحة لازدهار العلاقات الدولية وقيام التبادل الثقافى لتقوية هذه العلاقات .

ولقد مهدت فيما بعد للسفارات الثقافية بوادر النهضة العلمية التى اشرنا اليها فى العصر الأموى ، تلك النهضة التى اتسع نطاقها وتشعبت فروعها فى عصر العباسيين ، فكانت من أعظم النهضات وأشدها خصبا فى تاريخ الحضارة الانسانية . ذلك أن حركة الترجمة — التى ألقيت أولى بذورها فى المجتمع العربى منذ عصر الأمويين — كانت ارهاصا بازدهار شجرة الثقافة حتى حان قطاف ثمارها فى العصر العباسى . يدل على ذلك ما ترجم الى اللغة العربية بفضل خلفاء بنى أمية من كتب فى علوم الطب والكيمياء والفلك ، وقد حظى الطب العربى بأكبر قدر من الاهتمام وازداد أثر الطب اليونانى والسريانى فيه نظرا لقرب دمشق من بلاد الروم . ومما يجدر بالذكر أن مدارس الطب اليونانى قد انتقلت فى عصر عمر بن عبد العزيز من الاسكندرية الى أنطاكية وحران .

أما السفارات الثقافية بمفهومها الدبلوماسى — ونعنى بها التبادل الثقافى الذى ينشأ بين دولة وأخرى عن طريق المفاوضات وغيرها من الطرق الدبلوماسية — فلا نكاد نعثر فى صفحات التاريخ الاسلامى فى العصر الأموى الا عن انباء قصيرة نادرة فيما يشبه السفارات الثقافية الاسلامية الى الدولة البيزنطية التى كانت تشكل أكبر القوى السياسية المنافسة للدولة الاسلامية فى ذلك العهد ويروى من انباء تلك السفارات ان قيصر الروم كتب الى معاوية ابن أبى سفيان رسالة مع سفير له يقول فيها :

« أخبرنى عما لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له ، وعمن سار به قبره ، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم ،وعن شىء ونصف شىء ولا شىء ، وابعث الى فى هذه القارورة ببزر كل شىء »

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عباس اعظم الفقهاء المسلمين فى ذلك الوقت ليجيب عن الأسئلة . فرد ابن عباس قائلا:

« أما ما لا قبلة له فالكعبة ، وأما من لا أب له فعيسى ، وأما من لاعشيرة له فآدم وأما من سار به قبره فيونس (النبى الذى ابتلعه الحوت) وأما ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم ، فكبش ابراهيم وناقة ثمود ، وحية موسى . وأما شيء ، فالرجل له عقل يعمل به ، وأما نصف شيء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأى ذوى العقول ، وأما لاشيء ، فالذى ليس له عقل يعمل به ولايستعين بعقل غيره . »

ثم ملأ ابن عباس القارورة ماء ، وقال : هذا بزر كل شيء . وبعث معاوية بتلك الاجابة الى قيصر الروم ، الذى أعجب اعجابا شديدا بعلماء الدولة الاسلامية وسعة مداركهم .

ونرى من هذه الرواية أنها دعابة لطيفة أشبه بالمراسلات الأدبية منها بالسفارات الثقافية ممايدل على ان الظروف الداخلية والخارجية التى واجهتها الدولة الأموية لم تكن لتسفر عن تبادل دولى مزدهر فى الميدان الثقافى بمفهومه الدبلوماسى بقدر مامهدت لازدهار السفارات الثقافية فى عهد العباسيين .

المبحث الثالث

فى عصر الدولة العباسية

تطورت الدبلوماسية الاسلامية (بانتهاء العصر الأموى) تطورا على جانب كبير من الأهمية . فقد اتسع نطاق العلاقات الدوليـــة بين العباسيين والبيزنطيين ، فازداد النشاط الدبلوماسى ، وتعددت اغراض السفارات ووظائفها بحيث اصبح تبادل الممثلين السياسيين وسيلة لتوثيق الصلات التجارية والثقافية وتبادل الأسرى وتبادل العطايا وفض المنازعات وعقد المعاهدات .

وكانت الدولة الاسلامية والـــــدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين فى ذلك الحين . فقد امتدت رقعة الاسلام من أطراف الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وذلك فضلا عن امتــــداد أرجائها شمالا وجنوبا . وكانت امبراطورية الروم المسيحيـــة ـ الامبراطورية البيزنطية ـ تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبـلاد البلقان وايطاليا . ولم تكن الحرب هى العلاقة الوحيدة بين هاتين القوتين الكبيرتين ، بل نشأت بينهما فى كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقا لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولى .

ولم تستمر سياسة الفتوح فى عصر العباسيين كما كانت عليه الحال فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . فلم تزد رقعة الدولة الاسلامية بل بدات الحركات الانفصالية تعتريها فى أواخر هـــذا

العهد فكانت فى حاجة الى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها الى الاستمرار فى الفتح . ومن ثم كان أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم دفاعا عن دولتهم فى المقام الأول . وكانت تلك الحروب هى الجانب السلبى للعلاقات السياسية ، اما فى الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون اكثر من الأمويين بتوسيع دائرةعلاقاتهم الخارجية السلمية . فسارت السفارات بينهم وبين القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة والهندوالصين . وعقدتبيزنطة مع بغداد معاهدات الصلح وتبادل الأسرى فى عهد هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، وتبادلت معها السفارات فىمختلف الأغراض . وكان دعم الروابط العلمية والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الاسلامية من أجل توثيق علاقاتها مع جاراتها مما يشبه المهمة التى يقوم بها المستشارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم .

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الاسلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامى أطرافها بازدهار السفارات الثقافية بينها وبين الدولة البيزنطية . [illegible]دل الجانبان الكتب أو الرسائل التى كانت تصاغ فى أساليب ودية ثم دخلا فى مفاوضات أسفرت عن معاهدات لاقرار التبادل الثقافى . وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التى تتوافر لدى الجانبين أو فى مكتباتهما العامة وتبادل البعثات العلمية وتيسير مهام الطلاب والباحثين فى جامعات المسلمين والبيزنطيين وفى عواصمهم .

ولاغرو أن يعد عصر هارون الرشيد والمأمون بالعصر الذهبى ، للثقافة والفكر ، وأن تبلغ فيه السفارات الثقافية غاية مابلغته طوال العصور الاسلامية ولقد كان عصر البعث العلمى بحق ، لأنه العهد الذى ارتفعت فيهأعلام الدول الاسلامية على كثير من أقطار العالم الغنية بالموارد وساد فيه السلام الاسلامى جميع مشارق الأرض ومغاربها . فقد امتدت حركة الترجمة التى بدأها الأميون الى جميع

فروع العلم والمعرفة . ولم يأل العباسيون جهدا فى استقائها من مصادرها الأصيلة والبحث عنها فى منابتها القاصية . وقد تأصلت تلك الحركة بفضل حرية الفكر التى اعتنقها المسلمـــون وكانت ديدنهم فى معاملاتهم مع غيرهم ، فلا تمييز بين البشر بسبب العنصر أو الملة أو اللون وانما عدالة ومساواة تظل الجميع فى اطار الشريعة الاسلامية . ولا مراء فى ان علماء أوربا فى العصر الوســيط قد تعلموا حرية الفكر عن المسلمين ، فكانت التربة الصالحة لنماء بذور الحضارة الغربية ولولاها لما استطاعوا ان ينتزعوا راية العلم من رجال الكنيسة المتعصبين المستبدين ويطهروا عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة ويؤمنوا بالعلم وقدرتهم على التحكم فى مصائرهم كما تعلموا دقة البحث العلمى فتمكنوا من تحقيق كشوفهم العلمية وفى ذلك يقول العلامة الاجتماعى جوستاف لوبون « **ان العــرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين** » ونجد مصداقا لهذه الحرية فيما قرره « درابر » أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكيين « **ان المســـلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجــرد الاحترام بل فوضوا اليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورقوهـــم الى أعلى المناصب فى الدولة ، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماســويه . وكانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء الى النصارى تـارة والى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذى عاش فيــه العالم ولا الى الدين الذى ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانتــه من العلم والمعرفة** »

وقد بلغ اهتمام العباسين بالثقافة حدا ليس له سابقة فى تاريخ النهضات العلمية اذ كانوا يعدون العلم مقوما رئيسيا لبنــاء الدولة والمجتمع . وقد شمل هذا الاهتمام العلوم الدينية والدنيوية على السواء ، فشجعوا على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية من مختلف

اللغات ، ولم يضنوا فى سبيل الترجمة والتأليف بجهد أو مال حتى يحيطوا علما بجميع ثمار الفكر البشرى سواء التاريخى منها أو العصرى . ومن ذلك ماأثر عن ابى جعفر المنصور الخليفة العباسى من أنه شجع مالك بن أنس على تأليف الموطأ كما شجع العلماء على التأليف فى العلوم والفنون ، ثم أغرى المترجمين من السريان والفرس بالمال الجم لينقلوا من الفارسية والسريانية واليونانية الى العربية فنون الطب والهندسة والفلك ، وكان هو نفسه ممارسا علوم الفلك ، بارعا فيها .

وتحفل كتب التاريخ بكثير من الشواهد الأخرى على اهتمام الخلفاء العباسيين بحركتى الاحياء العلمى والنهضة الفكرية حتى صارت كل من بغداد والبصرة والكوفة مراكز قيادة ومصادر اشعاع للتيارات العلمية والفكرية ، يتزاحم عليها أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان لينهلوا من مواردها الغزيرة وكان عماد تلك الحركة جمع الكتب والمصنفات من خزائنها فى الدول المجاورة لتحصيل مااحتوته من كنوز علمية واستيعاب مافصلته من نظم فى السياسة والحكم والفلسفة والأدب وعلم الطب والطبيعة والفلك والهندسة وغيرها والافادة بها فى تطوير أجهزة الحكم الاسلامى . ولتحقيق هذا الغرض سارت السفارات العلمية الاسلامية الى بيزنطة وقامت بزيارة مكتبات القسطنطينية ، لاستخراج الكتب النادرة التى يحتاج اليها المسلمون فى دراساتهم النظرية والفلسفية أو تجاربهم الكيماوية والطبية على السواء ولترجمتها .

ومن تلك السفارات مابعث به الخليفة العباسى المنصور الى القسطنطينية ، حيث عاد العلماء ومعهم مختارات من الكتب النادرة كان من بينها كتاب اقليدس . وجاء فى كتاب الفهرس لابن النديم أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى البحث عما يختلو

من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فأجابه ملك الروم ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ومسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله وترجمته فنقل ، وقد قيل ان يوحنابن ماسوية ممن نفذ الى بلاد الروم .

وكان المأمون ينتهج جميع السبل الدبلوماسية لتحقيق بغيته فقد وثق علاقاته بملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الثمينة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وارسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم . وليس أدل على جهود المأمون فى هذا الميدان من تلك الواقعة التاريخية التى تؤكد نظرته الى الثقافة على انها ركن من اركان الدولة ودعامة من دعائم السلام الاسلامى وليست مجرد ترف عقلى فقد كان من شروط صلحه مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث ان يعطيه مكتبة من مكتبات الآستانة فكان ذلك ووجد فيها كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر بترجمته وسماه المجسطى . ومن مآثر المأمون فى ميدان البحث العلمى انه انشأ سنة ٢١٥ هـ (٨٢٠) بيت الحكمة فى بغداد وجمع فى هذه المكتبة آلاف المخطوطات بعضها مترجم عن الحضارات الانسانية القديمة التى ورثها المسلمون والبعض الآخر من تأليف الأدباء والعلماء العرب فى شتى العلوم والفنون . وقد قصد الباحثون هذه الدار من مختلف الأمصار الاسلامية يأخذون عنها وينهلون منها . وبذلك انتقل العلم من الرواية الى التأليف ومن المشافهة والاستماع الى البحث والاستقصاء . وازدهر الانتاج الفكرى فى أرجاء الوطن العربى من جميع نواحى العلم والمعرفة .

وكان الخلفاء العباسيون والأباطرة البيزنطيون يتنافسون فى انتزاع فضل السبق العلمى فى عصريهما ولا يألون جهدا فى هذا السبيل . من ذلك أن الخليفة المأمون ومعاصره الامبراطور تيوفيل

كانا يغرمان بالشعر وروايته ، ويهتمان بالمسائل الدينية واستثارة المعارضة بالتجديد فى الدين . ولهذا عمل كل منهما على تتبع نشاط الآخر فى هذه الشئون وغيرها من المسائل العلمية كى يفوز عليه ويسبق بأمته دونه . ومن طريف مايذكر فى هذا الصدد تلك السفارات المتعددة والمفاوضات المتكررة التى دارت بين الامبراطور تيوفيل والخليفة المأمون فى شأن العالم الفلكى المهندس ليو . وكان الخليفة المأمون يتوق الى حضور هذا العالم الذائع الصيت الى بغداد لفترة قصيرة من الزمن كى يستفاد من علمه الواسع فى الرياضيات . فأرسل الى الامبراطور البيزنطى سفارة خاصة من أجل ذلك ، وقال فى رسالته الشخصية اليه انه يعتبر ذلك عملا وديا . ووصل الأمر الى حد أن عرض عليه صلحا دائما وألفى قطعة ذهبية فى مقابل حضور هذا العالم اليه .ولكن تيوفيل رفض عرض المأمون لأن أبحاث ليو كانت تتعلق فى شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية . وحين نذكر قوة الدولة الاسلامية فى عهد المأمون وسعى الدولة البيزنطية الى خطب ودها والدخول معها فى علاقات ودية ، ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون ومدى حرص تيوفيل على منافسة الخليفة فى البحث العلمى .

ويذكرنا هذا بالمنافسة العلمية التى تحتدم فى وقتنا الحاضر بين الدول الكبرى فى سبيل الاستئثار بعباقرة العلم الحديث ــ ولاسيما فى مجال الرياضيات وهى أساس الحضارة الحديثة وأبحاث الفضاء ــ واحتكار جهودهم وخبراتهم لخدمة الدولة التى ينتمون اليها أو تلك التى تظفر بعلمهم وتكسبهم الى جانبها فيقيمون فى أرضها بغض النظر عن جنسيتهم وتهيىء لهم جميع أسباب الرفاهية وتبسط عليهم حمايتها وتمنحهم جنسيتها اذا شاءوا ، وبما تنتهجه تلك الدول لذلك من مختلف الوسائل الدبلوماسية وغيرها ما بين وعد ووعيد وترغيب وترهيب ومنح ومنع وفقا لسياسة الدولة

ومصالحها العليا ، وبما تدعو اليه دول الحياد الايجابى وعـــــدم الانحياز من اتاحة الفكر الانسانى للبشر جميعا دون تمييز والتشجيع على تبادل ثمراته لدعم التعاون الدولى واقرار الأمن والســـــلام وللقضاء على سياسة التكتلات والمعسكرات التى ينجم عنها التوتـر الراهن فى الموقف الدولى . وهى دعوة تنبع من ضمير الانســـان الحديث الذى مزقه القلق والخوف من نشوب حرب جديدة ،وترمى الى تحريم استغلال العلم فى اضرام لهيب تلك الحرب للسيطرة على العالم واعادة ركب التاريخ الى عصر البربرية والهمجية الأولى ، والى اتاحة الكشوف العلمية الحديثة للبشر كافة واستخدامها فى سبيل التخفيف من ويلات الانسان والقضاء على المخاطر التى تترصده فى الطبيعة وتهدد حضارته بل كيانه وذاته ورفع مستوى الـدول الناشئة التى خلف لها الاستعمار أبشع ألوان المهانة والبؤس . ولا شك أن السفارات الثقافية وسيلة مثمرة لتحقيق هذه المقاصـــد النبيلة .

وتتجلى تلك النزعة العلمية التى تعد احدى العلامــــات الواضحة المميزة للنهج الذى كان يسير عليه العهد خلال عهـــود خلفاء بنى العباس والتى تؤكد اعتدادهم بالعلم كدعامة اساسية من دعائم دولتهم وركيزة للاسلام فى الأرض ، وعاملا قويا لامتداد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم — وتتجلى هذه النزعة فى اهتمامهم البالغ بالعلوم الفلكية . ولعل فى هذا الاهتمام وفيما وصلت اليه مختلف العلوم فى عصرهم من نهضة مجيدة مايشهد باستقرار دولتهـــم وعلو كعبهم فى هذا المضمار وتفوقهم العلمى الذى مكن لهـــم من بسط سيادتهم على كثير من أصقاع الأرض .

وقد سلك ذلك الاهتمام سبيل السفارات الثقافية ، فأكثروا من ايفاد البعثات الى القسطنطينية عاصمة الـــدولة البيزنطية لتزويدهم بالنظريات المستحدثة فى الميادين العلمية . وكانت علوم

الفلك والرياضيات عند المسلمين فى بدء ازدهارها فى حاجة الى الأفادة مما بلغه البيزنطيون من تقدم فى هذا المضمار فبعث الخلفاء العباسيون بكتبهم ورسلهم الى أباطرة القسطنطينية سعيا الى عقد الاتفاقات الخاصة باستقبال السفارات الثقافية الاسلامية الموفدة لديهم والعمل على تحقيق أغراضها . ومن الطبيعى أن الدخول فى تلك المعاهدات كان يتوقف على نوع العلاقات القائمة بين الدولتين فى ذلك الحين . فاذا كانت تلك العلاقات تتسم بالود والصداقة نجحت المفاوضات وسارت السفارات فى اداء مهمتها دون ما عقبات ، أما اذا كانت متوترة ولم تقطع بعد فربما قامت الاتصالات بدور التمهيد لعودة العلاقات الى سابق عهودها . وكما نشأت السفارات الثقافية بفضل العلاقات الوطيدة بين الدولتين ، فقد كانت كذلك عاملا على استمرار تلك العلاقات وتقويتها وسبيلا للتعاون — على تحقيق المصالح المشتركة ، ذلك أن التبادل الثقافى وهو ثمرة للسلام — لا يلبث أن يصبح من عوامل استتبابه وأسباب استقراره .

ولاريب فى أن العرض السخى الذى اقترحه المأمون على الامبراطور تيوفيل لحضور العالم « ليو » اليه وما يحمله من تضحية كبيرة لينهض دليلا على ادراك الخلفاء المسلمين لأهمية السفارات الثقافية فى دعم دولتهم حتى كانوا يقيمون المفاوضات المتكررة بشأنها وقد يضعونها فى ميزان واحد مع أركان السياسة العليا للدولة ، فالخليفة يعرض صلحا دائمافى مقابل انفاذ عالمالرياضيات الكبير اليه والامبراطور لايجيبه الى مطلبه لأن الأمر يتعلق بسلامة دولته .

وقد تجاوزت السفارات الثقافية الأسلامية الى بيزنطة هذا الغرض ويتمثل فى طلب المصنفات القيمة وحضور العلماء ، الى غرض علمى آخر وهو دراسة الأماكن التاريخية والمواقع الأثرية التى تتعلق بأحداث الإسلام أو بما ورد ذكره فى القرآن الحكيم .

ومن ذلك بعثة العالم العربى المشهور محمد بن موسى الذى بعث به الخليفة العباسى الواثق (٨٤٢–٨٤٧م) الى أفسوس بآسيا الصغرى من بلاد الروم لزيارة الكهف الذى حفظ فيه رفات الفتية الـذين استشهدوا أيام الأمبراطور دقلديانوس والذين ورد ذكرهـــم فى القرآن الكريم فى سورة الكهف ((انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)) وقد منح الأمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث البعثـــة الاسلامية تفويضا خاصا لزيارة الكهف وبعث معها بدليل خـــاص لارشادها فى تجوالها . وقد وصف سفير الخليفة مشـــاهداته وانطباعاته عن أهل الكهف فقال :

« عندما وصلنا الى المدينة شاهدنا جبلا يؤدى الى الموضـــــع الذى فيه اصحاب الرقيم ، فبدأنا بصعود الجبل الى ذروته ، فاذا بئر محفورة لها سعة ، وتبينا الماء فى قعرها ثم نزلنا الى بـــاب السرداب ، فمشينا مقدار ثلاثمائة خطوة ، فصرنا الى الموضع الـذى اشرفنا عليه ، فاذا رواق فى الجبل .. وفيه عدة ابيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ،ورجل موكل بحفظهم .. واذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشـــهم ، ويزعم انه لايأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليـــدوم كسبه بهم . فقلت له دعنى أنظر اليهم وانت برىء ، فصعـــدت بشمعة غليظة مع غلامى ، فنظرت اليهم فى مسوح تتفرك فى اليد واذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، واذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير انى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجـدت خشونة شعره وقوة ثباته » .

ولايعنينا فى هذا المقام ان يتحقق صدق هذه الرواية وانمـا أوردناها لدلالتها على ايفاد سـفارات ثقافية لأغراض تاريخيـــة كذلك نظم الخليفة الواثق بعثة كبيرة رأسها احد كبار مترجمى الدولة لاكتشاف السور الذى بناه الاسكندر ، فيما تقول الروايات سدا بين الروم ويأجوج ومأجوج الذيـــن ورد ذكرهم فى القرآن

الكريم . ودامت البعثة ثمانية وعشرين شهرا . فلما عاد اعضاؤها كافأهم الخليفة على ما حصلوا عليه من بيانات وافية .

ونستبين من هذه البعثات الثقافية في العصر العباسي ان النهضة العلمية قد تركزت بحق عند المسلمين نتيجة تقديسهم لرسالة الفكر وحرصهم على البحث عن التراث الثقافي الانساني وارتياد آفاقه كشفا عن جديد أو دراسة لقديم . وما أشبه هذه السفارات العلمية التي أوفدوها للكشف عن الآثار التاريخية ودراستها بتلك التي نشهدها في وقتنا الحاضر قادمة من شتى دول العالم للاسهام في انقاذ آثار النوبة التي ستغمرها مياه السد العالي عام ١٩٦٨ وذلك باتخاذ الاجراءات الكفيلة بالمحافظة على هذا التراث الحضاري العظيم الذي يرتفع عن الحدود الاقليمية والخلافات السياسية بين الدول ويقرب بين الحضارات ويوحد بين الشعوب في المجال الفكري اذ تتعاون الهيئات الدولية والقومية في سبيل **حماية هذه الآثار الخالدة .**

وخلاصة القول أن خلفاء بني العباس قد بلغوا الذروة في التوسع والانتشار بفضل النهضة الفكرية التي رويت بذورها في عهد الأمويين وبدأت تعطي ثمارها عندما جاء الحكم العباسي ، فاذا بالطاقات العربية الزاخرة والتي حملت رسالة الاسلام قبل بضعة قرون تتفجر مرة أخرى في شكل جديد يمثل نتاجا حضاريا ضخما يصل الحضارات الأولى التي قامت على ضفاف النيل وما بين النهرين وجنوب الجزيرة العربية ، وأيضا الحضارات اليونانية والهندية والفارسية بالحضارة الاسلامية في العصر العباسي ، كما مهد — حين بلغت الرسالة الاسلامية أرض الأندلس ودام الحكم العربي بها سبعة قرون — لقيام النهضة الأوربية فيما بعد .

المبحث الرابع

فى عهد الأمويين بالأندلس

فى سنة ٧٥١ م استطاع احد أبناء البيت الأموى الذى تداعى أمام قوة العباسيين (وهو عبـد الرحمن الداخل) أن يفر الى الأندلس ، وأسس لنفسه امارة هناك عرفت باسم الامارة الأموية حيث استقل بها عن الدولة الاسلامية فى المشرق .

وقد أخفق الخلفاء العباسيون فى القضاء بحد السيف على تلك الدولة الناشئة ، فأصبح شغلهم الشاغل مناوأتهـا والبحث عن وسيلة لقصر نفوذها والحد من أطماعها فى شمال افريقيـة . ووجدوا فى دولة الفرنجة التى تتاخم حدودها الأندلس ركيـزة يستندون اليها فى تحقيق أغراضهم . وقد قامت تلك الدولة فى بلاد الغال (فرنسا) فى زمن معاصر لقيام الدولة الأموية فى الأندلس، واتخذت من اكس لاشابل عاصمة لها . وحاول امبراطورها شرلمان (سنة ٨٠٠ م) أن يعيد مجد روما القديم وينافس الدولة الرومانية الشرقية التى تأسست فى بيزنطة تحت زعامة العالم المسيحى . وأصبحت دولة الفرنجة فى عصر شرلمان أعظم قوة فى أوربا الغربية، واستطاعت بتحالفها مع البابوية فى روما أن تحد من نفوذ الدولة البيزنطية ، وتطلعت الى مد سـلطانها الى شرق أوربا وبسـط حمايتها على المسيحيين هناك .

وفى هذه الظروف لعبت سياسة توازن القـــوى دورها فى العلاقات السياسية بين هذه الدول الأربع المتنافسة ، فقد قامت الى جوار الدولة الاسلامية فى بغداد ودولة الروم فى القسطنطينية، (وهما أكبر قوتين سياسيتين ظهرتا على مسرح الحياة الدولية فى هذا العصر) ، قوتان أخريان هما دولة الأمويين فى قرطبة ودولة الفرنجة فى اكس لاشابل .

فجد تنافس فرعى بين العباســـيين فى المشرق والأمويين فى المغرب من جانب وبين البيزنطيين فى شرق أوربا والفرنجة فى غربها من جانب آخر .

وقد أحدث التغيير الذى طرأ على التـوازن الدولى فى تلك الحقبة أثره فى العلاقات القائمة بين تلك القوى السياسية المتنازعة، ونشأ عن ذلك تطور كبير فى الدبلوماسية . فلم تعد الحرب هى السبيل الوحيدة لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة وحل مشكلاتها وتحقيق أهدافها فى التوسع والسلطان ، وأصبح حد السيف لايكفى – ازاء تلك القوى الدولية الكبيرة – لفض المنازعات بينها . فلم يكن بد من استخدام الدبلوماسية كاحدى الأصول التى يتعلمها رجال الدولة وينهجون على أساسها فى اقرار علاقاتهم مع الأمم الأخرى . وأصبحت الدبلوماسية نظاما مدروسا تسير عليه الدولة فى علاقاتها الخارجية .

لقد كانت حاجة الروم الى العرب ماســة ومستمرة وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الاسلامية . فلاغرو أن تغدو هذه الحاجة أشد بعد الانشقاق الذى دب فى صـــفوف المسيحيين وقيام دولة الفرنجة ومنافستها للامبراطورية البيزنطية هذا فضلا عن ظهور الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان ، وأن يؤدى هذا الى أن تلجأ تلك الامبراطورية الى التفـاهم مـــع جيرانها العرب ، وأن تسعى الى محالفتهم لمقاومة أعدائها وتأمين

جبهتها الداخلية كما يتجلى ذلك فى مفاوضاتها مع هارون الرشيد والمأمون والمعتصم . وقد انعكس هذا التطور الدبلوماسى على السفارات الثقافية باعتبارها غرضا من أغراض الدبلوماسية فسارت السفارات الاسلامية من بغداد الى عاصمة الرومان .

وقد نافست دولة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس سلطان الخلفاء العباسيين فى بغداد ، فاتجهت الخلافة العباسية الى دولة الفرنجة القائمة على حدود الأندلس تنشد محالفتها ضد الأمويين، واستعانت فى سبيل دعم أواصر المودة والصداقة بينهما فسيرت السفارات الثقافية فيما بين بغدادوعاصمة الفرنجة. وقد تعددت السفارات بين الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور وبين سيد الفرنجة ، وبين هارون الرشيد وشرلمان .

ولم تحقق الدولة البيزنطية مآربها فى محالفة العباسيين ضد الفرنجة ، اذ كان هؤلاء ـ كما أسلفنا ـ يسعون للتحالف مع دولة الفرنجة ضد بنى أمية فى الأندلس . وقد حاول شرلمان مهاجمة دولة الأمويين ولكنه لم ينجح، فكان من الطبيعى أن يقيم البيزنطيون علاقات دبلوماسية مع دولة الأندلس ، وبلغت تلك العلاقات أوجها فى عهد الأمبراطور قسطنطين الرابع والخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر . وسارت السفارات بين القسطنطينية وقرطبة مثلما سارت بينها وبين بغداد . وكان للسفراء المسلمين فى القسطنطينية مكان الصدارة بين الممثلين الدبلوماسيين ، ولسفراء العباسيين الأسبقية فى الترتيب على سفراء الأمويين .

وقد أدى التوازن الدولى ـ كما تقدم ـ الى قيام السفارات الثقافية الاسلامية من قرطبة الى العواصم الأوربية بقصد توثيق الروابط السياسية والعلمية والاجتماعية بين الدولة الأموية فى الأندلس ودولتى المسيحية فى القسطنطينية واكس لاشابل ، ثم بينها وبين جماعة النورمان فى الجزر البريطانية التى بدأت تظهر كقوة سياسية جديدة فى ذلك الحين .

وقد بلغ التبادل الثقافى ذروته فى ذلك العهد بفضل النهضة العلمية التى ازدهرت فى العواصم الاسلامية والمسيحية ، فقد كانت بغداد وقرطبة والقسطنطينية مراكز اشعاع للعلوم والفنون والآداب ، تنافس كل منهما الأخرى فى التزود بالعلم والثقافة ، والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والأفكار ، وتشجيع العلماء والطلاب على البحث والدراسة ، والاكثار من السفارات الثقافية لتحقيق هذه الأغراض . وقد لعبت تلك السفارات دورا هاما فى اقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التى كانت تحتل مسرح السياسة الدولية حينئذ .

ولم تكن منافسة الأمويين للعباسيين اذن قاصرة على الميدان السياسى وحسب ، بل نافسوهم فى ميدان الحضارة أيضا فجعلوا من عاصمتهم قرطبة مركزا ثقافيا زاهرا ، يحج اليه العلماء والدارسون ، ويضارع بغداد فى عظمتها ومجدها . فلم يدخروا جهدا فى سبيل تجميل حاضرتهم قرطبة لتصبح كعبة للسفارات الدبلوماسية ومثارا للمعرفة والمدنية . فأكثروا فيها من البساتين والمساجد والمدارس والدور الكبيرة . وكان قصر الزهراء آية فى الفن المعمارى وعنوانا لما بلغته الأندلس فى هذا العهد من رفعة وازدهار . وقد شاهدت قرطبة أزهى عصورها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى كان عهده امتدادا لخلافة عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس **وفى عصره صارت الأندلس مدرسة يؤمها الأوربيون لتلقى مختلف العلوم عن العرب** ومن مآثر الناصر أنه أنشأ فى قرطبة خزانة « مكتبة » جمع اليها المصنفات العلمية من أنحاء العالم ، وكان يرسل التجار ومعهم الأموال لشراء الكتب أنى وجدت ، فاجتمع له منها ما لم يسبق له مثيل فى الاسلام . فجعلها فى قاعات مخصوصة من قصر قرطبة وأقام عليها مشرفا ووضع لها الفهارس ، كل موضوع على حدة . وقد ذكروا أن فهارس الدواوين وحدها كانت ٤٤ فهرسا فى كل

فهرس ٢٠ ورقة ، وأن مجمـــوع ما احتوته من الكتب ٦٠٠٠٠٠ مجلد .

واقتدى بالناصر رجال دولته وعظماء مملكته ، حتى قالوا انه كان فى غرناطة وحدها ٧٠ مكتبة عمومية . وقالوا ان حب اقتناء الكتب أصبح سجية فى أهل الأندلس وشارة من شارات الوجاهة والرياسة ، وكان من أثر ذلك أن انتعشت صناعة نسخ الـكتب وازدهرت فى قرطبة كما ازدهرت فى سائر العواصم الاسلامية فى المشرق .

وقد عكف العلماء والدارسون على هذه الكتب يغترفون من مناهلها ، فقامت حركة فكرية تناظر مثيلتها فى بغداد بل تسبقها بما تهيأ لها من استقرار الحكم وازدهار الرخاء ردحا طويلا من الزمن .

واتجه المسلمون فى الأندلس الى التأليف بعد أن تم لهم نقل الكتب والمصنفات الأجنبية القيمة الى اللغة العربية ، وتوصلوا الى بحوث مبتكرة ومخترعات جديدة فى تاريخ العالم حتى أصبحوا الرواد السباقين الذين تخطب الدول المجاورة ودهم وتسعى الى ايفاد بعثاتها الى جامعاتهم . كما أنهم لم يستأثروا بكنوزهم العلمية تلك ، ولم يضنوا بها على الدول الأخرى ، مستهدين فى ذلك بهدى دينهم السمح ، فالعلم من حق الناس جميعا والفـــكر الانسانى لا وطن له ، والتعاون بين الشعوب هو طريقها الى السلام الدائم ، ولا عجب أن كانت المدارس العربية منتشرة فى مقاطعات الأندلس حتى كان فى غرناطة وحدها سبع عشرة مدرسة من المدارس الكبرى ومائة وعشرون مدرسة من المدارس الصغرى . **وكان فى قرطبـــة ــ حوالى سنة ٩٧٠ ميلادية ــ ٢٧ مدرسة مجانية مفتحة الأبواب لتعليم أبناء الشعب . وكانت هذه المدارس على غاية من الاتقان ، قصدها أهل أوربا فى القرون الوسطى وقرأوا العلم فيها ثم حملوه منها الى بلادهم .**

وأشهر من تعلم فى هذه المدارس الراهب الأوربى « جربرت » ــ الذى أصبح فيما بعد البابا ((سليبستروس الثانى)) ــ وقد درس العلوم العربية فى الأندلس فى أوائل القرن الحادى عشر ، وهو أول من نقل الى أوربا معارف العرب ، وأدخـــل استعمال الطريقة العربية للأعداد ــ وقد نقلها العرب عن الأرقام الهندية ــ محـــل الطريقـة الرومانيــــة فى أوربا • ومن ثم قصد أهـــل ايطاليـــا وفرنسا وصربيا بلاد الأندلس لينقلوا الى بلادهم ما فيها من العلوم والمعارف .

وهكذا دار الفلك دورته ، وأصبحت دولة الاســـلام هى التى تستقبل البعثات الثقافية لتنهل من مواردها العلميـــة الغزيرة . وقد أجمع المؤرخون والعلماء على أن النهضـة العلمية والفكرية التى انبعثت فى عصر الخلافة الأموية فى الأندلس وبسطت ظلها عـلى كافة الميادين ، من أعظم الحركات الثقافية والحضارية فى تاريـخ العالم بأسره ، وأنها مرحلة متميزة فى طريق الحضارة العربيـــة . فهى تعد بحق ثورة فكرية كبرى على مدى العصور ، وهى أهـم العوامل الرئيسية فى انبلاج عصر الأحياء العلمى والنهضة الفكرية فى أوربا فى العصر الوسيط ، تلك النهضة التى أسفرت عن المدنية الحديثة فكان المسلمون هم الرواد الأول فى هذا المضمار ، واليهم يرجع الفضل فيما بلغته الحضارة الغربية من تقدم كبير فى عالم اليوم .

ولئن كان من الحق أن أثر الثقافة الاغريقية كان فعالا فى حركة نهوض أوربا خلال ذلك العصر ، فان تيار اليقظة الأوربية قد ابتعد فجأة فى جانبه الرئيسى عن الموارد الاغريقية وعرج ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى على الموارد العربية فظهــرت فى أوربا بوادر نهضة علمية وأدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص ثقافة العرب • وقد وفدت تلك النهضة عن طريق السفارات الثقافيـــة

التى سارت من أوربا الى الأندلس واختلطت بالثقافة الاسلامية فنشأت عنها حضارة العصر الحديث .

لقد انحسرت غزوات القادة والملوك وغاراتهم عبر التاريخ ولم تخلف أثرا ، ذلك لأنها كانت تقصد الى النهب والسلب ومغانم الأرض والسلطان . أما الفتوحات الاسلامية فقد كانت ترمى الى تحقيق رسالة انسانية نبيلة، وهى نشرالاسلام وبثمبادئه الجليلة. ولهذا لم يتبدد أثر الثقافة الاسلامية ، وآلت تلك البذور التى غرسها العرب فى البلاد المفتوحة بثمارها فى العلوم والآداب والفنون ، لا يمارى فى ذلك المنصفون من علماء التاريخ وفلاسفة الاجتماع على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم ، ولا يجحده الا متعصب ضيق الأفق أو مكابر مفرض .

فقد امدالمسلمون الأوربيين عنطريقالبعثات العلميةبالنظريات التى استحدثوها وهو أساس الجانبالمادى منالحضارة الأوربية. **فجابر بن حيان كان من أعظم رجال العلم فى العصور الوسطى ، وقد دون آراء صائبة فى أساليب البحث الكيميائى ، ويعرف النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد بعصر جابر بن حيان . كما يعرف النصف الأول من القرن التاسع بعصر الخوارزمى ، وهو الذى ابتدع اللوغارتم ويقال انه مشتق مناسمه ، ويعد هذا العالمالعربى من أعظم الرياضيين فى كل العصور ، وهو واضع علم الجبر . والعرب هم أول من أطلق على الجبر هذا الاسم وأفاد كوبرنيكوس وجاليليو من بحوث العربفى علم الفلك الذىنهض بهالعربنهضتهم المعروفة وأحدثوا فيه انقلابا كبيرا وربطوا به الجغرافيا فسبقوا بذلك علماء العصر الحديث وكشفوا عن طريقه مناطق لم تكن معروفة فى بعض القارات .**

وقد روى ابن النديم فى فهرسه أنه عندما ذاع صيت الفلكيين العرب فى اقطار العالم كان ملوك الافرنج يرسلون اليهم فى حل

المشكلات الفلكية ، وكانوا يرسلون وفودهم الى الأندلس وغيرها من ممالك الاسلام فى الشرق . ونسوق لذلك شواهد من أقوال العلماء والمفكرين الغربيين انفسهم . فمن اقوال العلامة «بيلى» :

« ان المسلمين كانوا حياة العلم فى أوربا . ولولا كتاب نور الدين فى الكرة ما تيهأ لكيلر أن يدون أحكامه الثلاثة المشهورة، وهى قوانين تتعلق بدوران الكواكب حول الشمس ، ومن هذه القوانين استخرج نيوتن قانون الجاذبية الكونية . ولولا زيوجهم فى السيارات والثوابت ما تسنى لفونسو الأسبانى أن يخرج زيجه . ويرى علماء آخرون أن زيجه أصح من زيج بطليموس » .

ومن أقوال الدكتور « بلتون » : « **ان العرب كانوا يعرفون ثقل الهواء ، ولهم طرق محكمة وموازين دقيقة لاستخراج الثقل النوعى لأكثر السوائل والجوامد التى تذوب فى الماء . ولهم فى ذلك جداول كالمستعملة الآن » .**

أما فى ميدان الطب الذى نبغ فيه العرب فقد سارت السفارات الثقافية كذلك من أوربا الى الأندلس العربية . **وتروى كتب التاريخ أن الامبراطور « شارلمان » قد استشار أطباء من العرب،** وان مدرسة « سالرنو » الطبية التى نهضت فى ايطاليا فى القرن الحادى عشر كانت متأثرة بالثقافة العربية ، وكانت حتى القرن الثانى عشر بمثابة القنطرة بين الطب القديم والحديث ، وتعد أم الجامعات الأوربية ، وقد انشئت على النمط الاسلامى واستوفدت اليها أساتذة من العرب قاموا بالتدريس بها مدة حكم العرب فى الأندلس .

ومما يجدر بالذكر ان كتاب القانون فى الطب لابن سينا « ١٩٨٠ — ١٠٣٧ » قد نقل الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر واصبح المعول عليه فى مختلف الكليات الأوربية حتى القرن السابع عشر .

والحق أن العرب كان لديهم علم حقيقى فى الطب فى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة على الأوربيين احتراف مهنة الطب لاعتقاد رجال الدين أن الشفاء يتم بتعاويذ دينية كانوا يقومون بها فى العصور الوسطى .

ولم تقتصر السفارات الثقافية الأوربية على دراسة علوم الفلك والطب وغيرها بالأندلس ، بل كان من مقاصدها تعلم اللغة العربية ذاتها بحسبانها لغة الثقافة والحضارة فى تلك العصور . من ذلك أن غليوم التاسع قد رحل الى الأندلس لأول مرة سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٢ م حيث تعلم اللغة العربية ، ثم تردد عليها بعد ذلك ، وهو أول من قلد الأزجال العربية فى الشعر البروفانسى، بل انه يعد أول شعراء التروبادور والذى يقال ان هذاالاسم مشتق من كلمة ((الطرب)) العربية .

ومن السفارات الاسلامية التى وفدت الى أوربا فى العصر الوسيط ما تذكره بعض المراجع من أن كنيسة « نوتردام » ــ التى شيدت فى فرنسا فى ذلك العصر ــ قد اشترك فى انشائها مهندسون من أبناء العربية .

والى جانب ارتياد أوربا مواردالثقافة الاسلامية فىكافةجوانب المعرفة البشرية كعلوم الطب والهندسة والجبر والفلك حتى كانت علوم الغرب فى ذلك العصر كلها علوما عربية كما يقول الاستاذ « رودينسون » فى مجلة تاريخ الأديان الصادرة فى ديسمبر عام ١٩٥١ :

((كان أثر التبادل الثقافى بين أوربا والأندلس بارزا فى ميدان الفلسفة منذ التقى الغربيون بالمسلمين فى أسبانيا عند نهاية القرن السابع الميلادى . ولم يمنع اختلاف العقائد من اقامة هذاالتبادل الفكرى)) .

وفى ذلك يقول العالم الفرنسى « جوزيف كالميت » فى كتابه « تاريخ فرنسا » الذى صدر فى سنة ١٩٤٧م :

« قد يبدو للوهلة الأولى أن تعارض الدينين كان يمكن أن يضع عقبة كأداء أمام تبادل التأثير بين الثقافتين ، ومع ذلك فلم تقم هذه العقبة على الأرض الأسبانية . غير أنه فى وصفنا هـذا التأثير شيئا من التجوز لأن الجانب الاسلامى كان أكثر نشاطا ، أى أن الاسلام هو الذى قدم عنصر الانتاج ، وأن العالم المسيحى هو الذى تلقى الأثر الانفعالى » .

ومن الحقائق الثابتة فى تاريخ الفلسفة تأثير « ابن سينا » فى « ألبير الأكبر » و « القديس توماس الأكوينى » وهمـا على رأس أعلام المفكرين الغربيين فى العصور الوسيطة ، وتأثير ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨م) فى فلسفة ومتفلسفى تلك العصـور وعصر النهضة . ويكفى أن نلقى نظرة عاجلة على تاريخ جامعتى «السوربون وباد وا » وما كان يحدث فيهما من معارك فلسفية طاحنة حول آراء « ابن رشد » فى ذلك العهد . وحسبنا أن نسجل هنا ان اسم « الشارح » كان اذا أطلق فى أوربا لا ينصرف الا الى « ابن رشد » وحده ، وأن هذا الفيلسوف قد ترك فى الغرب مدرستين قيمتين أطلق المؤرخون على احداهما « اسم المدرسة اللاتينية ، وعـلى الأخرى اسم المدرسة العربية » وفى هذا يقول المفـكر الفرنسى «ارنست رينان» فى كتابه الذى خصصه لدراسة مذهب الفيلسوف الأندلسى « ابن رشد » بعنوان « ابن رشد والمدرسة الرشدية » :

« ان الميل الى العلوم وتذوق الفنون الجميلة قد أنشـأ فى أسبانيا فى القرن العاشر تسامحا لا تكاد العصور الحديثة تقـدم الينا منه مثلا واحدا . اذ أن المسيحيين واليهود والمسلمين كانوا يتكلمون اللغة نفسها ، ويتناشدون الأشعار ذاتها ، ويتقـاسمون عين الدراسات ، الأدبية والعلمية ، وأن كل الحواجـــز التى تفرق

بين بنى الانسان قد انهارت ، وأن الجميع كانوا يسهمون متفقين فى تشييد الحضارة المشتركة ، وأن مساجد قرطبة التى يعد طلابها بالآلاف قد صارت مراكز نشيطة للدراسات الفلسفية والعلمية . »

ويقول فى ذلك أيضا الكاتب الانجليزى « ويلز » :

« ظهر فى العالم الاسلامى عدد من الجامعات الكبرى فى مراكز عدة فى البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، والقاهرة ، وقرطبة . وقد تفرعت هذه الجامعات من مدارس دينية أنشئت فى المساجد أولا ، وقد أرسلت تلك الجامعات أشعتها الذهبية الى ما وراء العالم الاسلامى وجذبت أنوارها المتلألئة الطلاب الوافدين اليها من الشرق والغرب ، وكان فى قرطبة على الخصوص عدد لا يستهان به من الطلبة المسيحيين ، وكان أثر الفلسفة العربية الذى فاض على جامعات باريس وأكسفورد وشمال ايطاليا ، وعلى الأفكار فى غرب أوربا ، كان هذا الأثر عظيما حقا . »

وثمة مثال آخر للاتصال الثقافى بين العالم العربى والعالم الغربى فى العصور الوسطى ، وهو تلك المراسلات الفلسفية التى كانت بين الفيلسوف الأندلسى « ابن سبعين » الذى ولد فى مرسية بجنوب أسبانيا سنة ٦١٤ هـ ، وبين الامبراطور «فردريك الثانى» حاكم صقلية فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد امتد التبادل الثقافى الى مختلف الفنون والصناعات وفى مقدمتها فن الملاحة الذى اشتهر به المسلمون ونقله عنهم الغربيون .

ومن أقوال الأديب المؤرخ الفرنسى « روبير بريفو » فى النهضة العلمية الاسلامية والبعوث الثقافية التى أوفدها الغرب الى الأندلس للتزود مما بلغه المسلمون من تقدم فى مختلف مناحى الحضارة .

« كانت أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، تتجه الى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب فى تطورها وتبدل حالها . كانت أوربا تتجه اليهم منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء. بل كانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد. وكان علماؤها من أمثال دانيال دى موربى ، وميشيل أسكوتوس ، ودى جريمون ، ودورليلاك ، وريمون لول ، يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد ريجيو مونتانوس عنـــدهم المعارف التى مكنت هنرى الملاح وفاسكودى جاما وخريســـتوف كولومبس من ارتياد المحيطات والوصول الى أطراف العـــالم . وعثر أديلهارد دى باث فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط أوسليد الذى ظل يلقن للطلبة فى مدارس أوربا حتى عام ١٥٣٣ . وطاف كل من أفلاطون لوبيزون وفيبارناتشى فى أرجاء أسبانيا ليتزودا بعلوم الرياضة لا سيما الجبر والتقويم واللوغارتم. بل ان الكنيسة نفسها التجأت الى العرب لتجد عندهم ما يعينها على اقامة صرح الفكر المدرسى . وبحث كل من ألبير الأكبـــر وتوماس ألين عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها فى بلنسيـــة وعند الفارابى . وفى الوقت الذى أنشـــد الشـــعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح روجربيكون فى أكسفورد بأن وجود الفكر الأوربى والعلم الأوربى كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية . لقد دعيت أوربا فجأة الى الحياة بعد ان ظلت غارقة فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ،وهى مدينة بـــكل مقوماتها الى العالم الاسلامى . »

ولا ريب أن التبـــادل العلمى بين أوربا والأندلس كان يتم الجانب الأكبر منه عن طريق السفارات الثقافية التى تسيـــر بين عواصم المسلمين والمسيحيين والتى تنظم على مستوى الدبلوماسية الدولية ، ولا سيما فى العهود الزاهرة فى الأندلس . أما فيما عدا

ذلك فقد كان هذا التبادل يتم فى معظمه عن طريق الجهود المستقلة للافراد من طلاب العلم والثقافة والجماعات والهيئات العلمية .

وقد نشطت حركة التبادل العلمى بفضل تعدد وسائل نقل الثقافة واستمرارها فى تلك العصور . فنشطت الأسفار عبر الطرق والمسالك البرية والبحرية . ولاشك أن الحركة التجارية كانت من أهم هذه الوسائل وأشدها مفعولا . ولا يخفى أن الحروب التى قامت بين العالمين الاسلامى والمسيحى قد مهدت الطريق للاتصال الحضارى بينهما .

والى جانب الرخاء الاقتصادى والاستقرار الذى سادالأندلس فى ظل الحكم الاسلامى وطبيعة العلاقات السياسية الدولية التى أشرنا اليها فى ذلك الحين وتعدد وسائل نقل الثقافة ، فان ثمة عامل آخر على جانب كبير من الاهمية أدى الى ازدهار السفارات الثقافية بين المسلمين والأوربيين فى العصر الوسيط وهو الموقع الجغرافى الذى تتميز به بلاد الأندلس ، فهى تعد مركز التحام واشتباك وتداخل وتعاون بين مختلف الشعوب ومختلف الثقافات، وقد أدى ذلك الى اتصال وثيق بين الثقافتين العربية واللاتينية فى الأندلس ، ونشأت فى أواخر خلافة الأمويين مدنية جديدة مركزها قرطبة هى مزيج من الحضارة العربية والرومانية . كما كان من أثر هذا التداخل أن اقتبس الأسبانيون كما اقتبس أبناء الدول الأوربية المجاورة كثيرا من مظاهر الحضارة العربية والتقاليد الاسلامية والنظم الادارية فى الأندلس .

وقام بنقل هذا التراث العربى الى أوربا أولئك المستعربون وطلاب العلم الأوربيون الذين كانوا يهبطون الأندلس أفواجا فى سفارات أو زيارات طويلة .

وقد أطنب الباحثون فى وصف الطابع العربى الذى اتسمت به معالم الحياة الاجتماعية فى الغرب ومدى تأثر التراث الأسبانى

خاصة والأوربى عامة بالتراث العربى لغة وأدبا وفكرا ، فانعكس فى مؤلفات الأدباء والمفكرين الغربيين المتأثرين بالفكر الاسلامى .

ومن أهم العوامل التى أدت الى هذا التزاوج الثقافى ايضا ما كان ينعم به المسيحيون فى أسبانيا من حرية دينية فى ظل المجتمع العربى ، هذه الحرية الدينية التى أسبغها عليهم العرب رغم العداوة الرسمية التى كانت قائمة بين العالم الاسلامى والعالم المسيحى . فالثابت أن حالة العداء أو القطيعة أو الحرب لم تكن هى العلاقة الدائمة أو الوحيدة بين هذين العالمين ، ولم يحل هذا العداء دون قدوم السفارات الأوربية من الرهبان والقساوسة الى الأندلس لطلب العلم بل لتعلم اللغة العربية ذاتها .

وترجع هذه الحرية الدينية التى أفاءها المسلمون على أصحاب الديانات الأخرى الى طبيعة العقيدة الاسلامية فى سماحتها وانسانيتها وأنه ((**لا اكراه فى الدين**)) ، والى معدن الروح العربية التى تتصف بالألفة والمشاركة الوجدانية للناس جميعا بلاتعصب ولا بغضاء ، فالعربى انسان يتميز عن غيره بنبله وسماحته ، ففى طبعه أنه يألف الناس ويعاشرهم ويخالطهم ويزاوجهم ولا يأنف ذلك ولا يستشعر مركب نقص أبدا ، ويسجل ذلك العالم الفرنسى الأستاذ « فورييل » فى كتابيه « تاريخ الجول الجنوبى » و « تاريخ الشعر البروفانسى » فيقول :

ان من الوقائع الجديرة بالملاحظة تلك الجاذبية وذلك الاتصال الاجتماعى اللذين استقرا منذ زمن بعيد بين العرب والأسبانيين ، وجعلا ينموان على التوالى ، وهاتيك السهولة التى خضع بها الأخيرون لذلك السمو النبيل الذى أفاضه عليهم الأولون اذ استهوتهم عبقريتهم اللطيفة فاستساغوا لغتهم وألفوا عاداتهم ، بل أخيلتهم .

ان طباع العرب وانظمتهم هى التى لفتت انظار اهل الجنوب فى فرنسا فى القرن الحادى عشر حين بدأوا يرون فى أولئـــك المسلمين ، وهم الذين كانوا أول الأمر يرهبونهم بوصف انهم اعداء للعقيدة المسيحية ــ رجال اكثر منهم حضارة .

لقد كان الاجماع فى ذلك العهد يعز الى العرب كل ما كان يبدو خليقا بالاعجاب أو كل ما كان يقتضى وجود فن من الفنون الرقيقة»

وكذلك ما يقرره الاستاذ « بيير بونسواى » فى كتابه «الاسلام والجول » :

« يعلم الناس اليوم أكثر من ذى قبل أن المسيحية والاسلام فى العصور الوسيطة لم يلتقيا للتقاتل فحسب ، فهنــــاك وقائع متضافرة ومحققة تشهد بأنه قد وجد بين صفوتيهما المسئولتين ــ فيما وراء التلاعن والتقاتل ــ كثير من التآلف ، ولكنه لم يكن تآلفا ناشئا عن تبادل التفاهم السطحى الناجم عن المصـــادفة بل كان اتحادا روحيا حقيقيا لعبت فيه الثقافة الاسلامية أثناء عــدة قرون دور الملهم والمرشد » .

وليس ادل على هذه الروح الاسلامية المثالية التى وســعت الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم فكانت عاملا على التآلف الروحى والتعاون الحضارى والازدهار الثقافى مما كتبــه « أناتول فرانس » الكاتب العصرى الكبير مسجلا على لسان أحـد أبطاله فى كتاب « الحياة مزدهرة » :

« ان اشأم أيام التاريخ هو يوم معركة بوابيه فى سنة ٧٣٢ م حين تقهقرت العلوم والفنون والحضارة العربيــة أمام البــربرية الافرنجية » .

ويعنى اناتول فرانس بهذا الحدث التاريخى الذى يصفـــه بالشؤم ، ذلك اليوم الذى اســـتطاع فيه جيش شارلمان بقيـادة

شارل ماربيل أن يقف زحف الغزو العربى الذى كان يجتاح أوربا ثم وقف عند مدينة بوايبه فى وسط فرنسا ، ثم تراجع واكتفى بالثواء فى أسبانيا ، فلولا هذه الواقعة — فيما يرى أناتول فرانس — لتغلغلت الحضارة الاسلامية فى أوربا حتى تشملهاجميعا ولتغير وجه التاريخ ، ولكان للانسانية بفضل المبادىء الاسلامية شأن غير ما تشهده اليوم فى أوربا من طغيان ووحشية واستعمار.

وبعـــد

فهذا جانب من جوانب النور الذى غمر العالمين بهدىالاسلام، لم نقصد فيه الى الالمام والاستقصاء ، وانما تحرينـــا الايجـاز والاكتفاء وانها لنماذج نسوقها فى حينها الموقوت ، ونحن نقـــوم بحركة البعث التاريخى لحضارتنا ومجدنا .. وقسطاس الأمر ما جاء فى القرآن : « يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

صدر من هذه السلسة حتى الآن